ب- نظرية الظاهرة الثانوية :

محاولة فلسفية أخرى لتفسير علاقة حالاتنا الشعورية بتغيراتنا الفسيولوجية في المخ ، دعا إليها بعض علماء التطور وكثير من الفلاسفة المعاصرين الذين تشيعوا للتطور وجعلوا له طابعاً فلسفياً ، أول من دعا أليها هو العالم البيولوجي الانكليزي المعاصر" توماس هكسلي " ، رأى الإنسان آلة واعية بلغ فيه الوعي أعلى درجات التطور البيولوجي في عالم الحيوانات ، وأن الإنسان مؤلف من جسم وعقل ، الجسم هو الأصل والعقل فرع تابع عنه في سلم التطور ، ليس العقل جوهراً ديكارتياً متميزاً ، وانما يصدر عن الجسم كما تصاعد الدخان من آلة بخارية أو كما ينطلق صوت دقات الساعة عن حركة آلتها ، بل يفرز المخ العقل كما تفرز المرارة الصفراء . وطور النظرية فلاسفة معاصرون أبرزهم " سانتيانا " ، ونظرية الظاهرة الثانوية تنادي بتأثير علّي بين حالات النفس وحالات الجسم من جانب واحد ، اذ يؤثر الجسم وتغيراته الفسيولوجية في حالات النفس ، بمعنى ان هذه الحالات تنشأ عن حالات الجسم وتغيراته أو ان حالات الجسم وتغيراته هي الشرط الضروري لكل حالاتنا النفسية . اما حالاتنا النفسية فليس في مقدورها ان تكون علة لأي حادثة فسيولوجية في المخ . ولقد طورت هذه النظرية نظرية أخرى هي نظرية الانبثاق ويعتبر " مورجان " و " صمويل الكسندر " و " برود " و " فيجل " من أكبر المدافعين عنها والمتحمسين لها . زادت نظرية الانبثاق نظرية الظاهرة الثانوية توضيحاً وتعميقاً بقولها أن العقل الإنساني حين أنبثق أو نشأ عن الجسم في تطوره البيولوجي المعقد في التركيب والوظائف ، اكتسب

خصائص اساسية جديدة تختلف عن خصائص البدن وليس في متناول علم وضائف الأعضاء أن يدرسها أو يتناول خصائصها أو يتنبأ بها . ويعترف أصحاب هاتين النظريتين أن من الصعب تفسير نشوء حالاتنا النفسية ذات الخصائص الافيزيائية لكن عجزنا عن التفسير لا يعني عدم وجودها .